أهمية البلاغة والتواصل في العملية التعليمية

بقلم د/العربي قلايلية

البلاغة علم عربي جليل نشأ في الملة الإسلامية ، وكان الغرض منه معرفة أساليب القرآن الكريم، والوقوف على معانيها قصد شرحها وبيان أبعادها الدلالية .

ولقد حظي هذا العلم بالعناية والاهتمام كسائر العلوم الأخرى، كما أنه ارتبط ارتباطا كبيرا بفكرة الإعجاز ، إذ أن تراكيب القرآن الكريم جاءت في الذروة من حيث الفصاحة والبلاغة، كما أن الإعجاز كان منذ البداية إعجازا بيانيا، وهذا ما لفت إنتباه الدارسين العرب القدماء الذين اهتموا بالرد على الطاعنين في القرآن الكريم إلى الإشتغال بدراسة أساليب القرآن من الناحية اللغوية والبلاغية مبينين الفرق بينها وبين أفصح الأساليب لدى العرب الفصحاء.

ومن هنا فإن الظواهر الأسلوبية التي وردت في القرآن كالتقديم والتأخير والحذف والإثبات، والإضهار والإضمار ، وأنواع النفي والإستفهام وحالات العطف.. كلها طاقات تعبيرية هائلة تتمتع بها اللغة العربية، وجرت على ألسنة العرب الفصحاء، ولما نزل القرآن نزل بلغتهم متضمنا خصائصهم الأسلوبية

وسماهم التعبيرية، ومعبرا بها عن أدق المعاني، وأشرف المضامين، في صور من التعبير بهرت العقول، وتحدت أرباب الفصاحة.

ولا يهمنا في هذه العجالة تاريخ البلاغة العربية وتطورها بقدر ما تهمنا أهميتها في مجال التدريس ، لذلك نقول : أن ما شاع لدى القدماء من مصطلحات دالة على هذا العلم كالبيان والبلاغة والفصاحة إنما هو في الحقيقة تعبير عن قدرة(المبدع/ الأديب) على تحقيق عملية التواصل التي تهدف إلى الإفهام والتبليغ والتوصيل..

فالبيان من الإبانة والتجلي ووضوح القصد وعكسه الغموض والإبهام والبلاغة هي القدر على الإيضاح وبلوغ القصد والهدف، وعكسها العي وهو عدم القدرة على توصيل القصد إلى المخاطب وأما الإفصاح فيتصل بإصدار الأصوات وإبانتها والتميز بيمنها في المخارج، وهو لا يخلو من معنى الإبانة وبلوغ القصد من الكلام..

والبيان عند القدماء معنى جامع لكل فنون البلاغة د، فألفاظ (البلاغة ، والبيان والفصاحة) وما شكلها عند عبد القاهر الجرجاني إنما تعبر عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد، وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم ويكشفوا لهم عن ضمائرهم[1] ، وكذلك الأمر عند العلوي في كتابة (الطراز) فهو يرى أن البيان هو الفصاحة ، وأن المراد من قول صلى الله عليه وسلم " إن البيان لسحر" أنه يحير العقول في حسنه ورونقه ودقة معانيه، وعن هذا قال بعضهم: فصاحة المنطق سحر الألباب[2].

فالبيان هو المنطق الفصيح المعرب عمّا في الضمير باستعمال اللغة: ألفاظا وتراكيب استعمالا يناسب المقام ويراعى الأحوال و الملابسات، ولا شك بأنّ الفروع الثلاثة (المعاني والبيان والبديع) إنّما أنشئت كهذا الغرض ، فهي تتصل بأحوال إنشاء الكلام نقدا وتحليلا وتقويما ...ولقد جاء هذا التقسيم للبلاغة على يد أبي يعقوب السّكاكي (يوسف) المتوفي (626هـ) في كتابة (مفتاح العلوم)، ورأى أن هذا التقسيم لتسهيل الدّراسة، فهو ذو طابع علميّ ومنهج أكاديمي يجمع بين التنظير والتطبيق، وليس كما يراه بعض الدّارسين تجميدا معرفة طرق إيصال وتوصيل المعاني، فهو في الحقيقة رصد لمجموعة من الطاقات التعبيرية التي تسمح بها اللغة العربية مع ما تحققه هذه الطاقات من الإبانة وحسن اختيار الألفاظ وجودة السبك والديباجة...

* بناء على ما سبق فإنّ الوظيفة الأساسية للبلاغة هي التبليغ وإحداث التواصل بكلّ ما تتضمنه وظيفة التبليغ من طرق في الأداء وتنوّعات في الأساليب مراعاة للمقام وطبقا للأحوال والملابسات التي يجري فيها الخطاب وهذا ما يستفاد من قوله تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبيّن لهم)[3].

فالقرآن الكريم رسالة سماوية بما يحمله من نظم وتعاليم وشرائع ونزل على الرّسول محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغه الناس فيفهموه ويهتدوا به ويتخدوه منهاجا في حياهم يهيّئهم لأخراهم، ولقد وصف الإنسان بالبيان (الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان)[4] أي خلق فيه القدرة العقلية على الإبانة والبيان ، يقول الجاحظ : (وبالبيان عرف النّاس القرآن)[5].

ومن أجل هذا دعا موسى عليه السلام ربه قائلا: (واحلل العقدة من لساني يفقهوا قولي) أيّ يفهموه ويتدبروه ويعملوا به...

ولمّا كانت البلاغة هي (بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدّا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها...)[6]، فإن التبليغ في كل ذلك يرتبط بالكلام المفيد دون الكلمة المفردة، وهكذا فالبلاغة وصف للكلام وأقله الجملة المفيدة، ولا حدّ لأكثر ه، وللمتكلم أيضا الذي يمتلك القدرة على التبليغ وذلك بانتقائه الألفاظ والتراكيب المعبرة، ومن خصائص الكلام البليغ مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته[7]، وهذا ما يشمل مورد الكلام من حيث الزمان والمكان وأحوال المخاطبين...

يستفاد مما سبق أن البلاغة ترتبط أساسا بعملية التبليغ أي التوّاصل، سواء تعلق الأمر بالنصوص القرآنية الأدبية الفنية أو غيرها..إلا أن الشأن في النص الأدبي الفني يختلف عنه في النص التواصلي النفعي، فالنص الأدبي زيادة على ما يتضمنه من قضايا وأفكار ومعان يراد تبليغها فإنه يتطلب صياغة أدبية غالبا ما يطلق فيها العنان للخيال والعاطفة لاستعمال الألفاظ الموحيّة المعبرة ذات الضلال الوارفة من المعني الثواني الناتجة عن التلوينات الأسلوبية بشتى أنواعها، وحينئذ تأخذ اللغة مجرى آخر هو ما عبر عنه القدماء (بالمجاز) وعبر عنه المحدثون أحيانا بالإنزياح الدلالي وتارة بالإنحراف اللغوي، ويسميه عبدالقادر الجرجاني(دلالة المعنى الأول على المعنى الثاني) في قوله : (وأهم أردوا أن من شرط البلاغة أن يكون المعنى الأول الذي تجعله دليلا على المعنى الثاني ووسيطا بينك وبينه، متمكنا في دلالته، مستقلا بوساطته، يسفر بينك وبيونه أحسن سفارة...)[8] .

ويكون الإقناع في كل ذلك إقناعا وجدانيا أساسه الانفعالات العاطفية، ويترك في النفس انطباعات وقيما...

أما بالنسبة إلى النصوص غير الأدبية والتي تتناول مختلف القضايا والأفكار التي لا تتطلب الدقة والموضوعية فإن مهمة البلاغة تبدو في انتقاء الألفاظ المعبرة عن المعاني والأفكار أحسن تعبير، وفي استعمال المصطلحات العلمية التي تختزن التصورات والمفاهيم المراد الوصول إليها لتحقيق حينئذ الإقناع العقلي الموضوعي القائم على الدليل والحجة ....

والبلاغة في كلا النصين (الأدبي والعلمي) فكر حضري تطوري (إ ن يقف أفرده على فن القول وتنوع الكلام ، بل الذي يمتد أثره في الأمم ..... ولا يعنى ذلك أن البلاغي يتحدث عن التبليغ صاحب البيان في العربية وآداها بل يتعدى أثره إلى البليغ في أيّ فن من فنون الحياة وفي أيّ لون من ألوان النشاط الإنساني .. ومن هنا نعرف قيمة اتصال تجديد الفكر البلاغي بالنهضات المادية والهزات الحضارية والتفوق العسكري...[9].

من هنا فإن البلاغة لا ينبغي أن ينحصر تدريسها في النصوص الأدبية وبالضبط في ألوان من التراكيب رصدها الأقدمون وأطلقوا عليها مصطلحات معينة، إنّ الذي ينبغي أن يعيه أبناؤنا وهم يدرسون النصوص بمختلف أنواعها هو ذلك التذوق الفياض الذي ينطلق أساسا من فهم الألفاظ ضمن النصوص إلى فهم التراكيب....أي ذلك الفكر البلاغي الذي يجمع بين الفهم والتذوق والموضوعية، و الذي يجعلنا ننتقل بهم من بلاغة الكلمة والترتيب إلى بلاغة تحليل النص وفهمه وسبر أغواره...

إنّ بناء النص العلمي يتطلب التدرج والانتقال من فكرة ، مع ما يتطلبه هذا الانتقال من ربط بين الأفكار والفقر المعبرة عنها لتحقيق الإقناع العقلي والمنطقي المبنى على البرهنة والاستدلال، ولقد تحدث السّكاكي عن علم الاستدلال وربطه بخواص تراكيب الكلام 10 تناول فيه التعريفات والحدود و لم يتجاوز به الجملة والتراكيب متأثرا في ذلك بالمنطق اليوناني الفلسفي، ولو أنه خارج عن حدود الجملة إلى الفقر والنص لكن السّباق إلى وضع أسس فرع جديد للبلاغة هو (بلاغة النّص) بدل البقاء في دائرة بلاغة التركيب أو الجملة...

فما أحوجنا إلى وضع أسس جديدة تمكننا من تطوير البلاغة العربية بما تحمله من رصيد ضخم للإفادة منه في تحليل النصوص وبنائها سواء كانت أدبية أو غير أدبية.

ولمّا كانت التوجيهات التربوية الحديثة منصبة على العلم والتكنولوجيا بمختلف أصنافها وأنواعها ، فقد يتبادر إلى الذهن السؤال الآتي:

فما موقع البلاغة من النصوص غير الأدبية؟!

إذا كانت البلاغة تعني من جملة ما تعني وضوح القصد والدلالة والدّقة في اختيار الألفاظ والتراكيب المعبّرة عن المضامين المرادة ...فإنّ النصوص ذات الطابع العلمي التي تطرح القضايا العلمية أو الاجتماعية أو غيرها ، تتطلب نوعا من الألفاظ والتراكيب خاصا، وتنتهج نهجا تدريجيا يبتدئ بطرح الإشكال أو القضية ثم الشروع في معالجتها وتحليلها أو وصفها للخلوص إلى اتخاذ موقف معين منها، وهذه المراحل الثلاث هي التي اصطلح على تسميتها (بالمقدمة والموضوع والخاتمة).

كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث ينبغي أن يقابلها رصيد معجمي من الألفاظ والتراكيب مناسب لها ومعبر عن محتواها...

إنّ التراكيب اللغوية من الوجهة الدّلالية متنوعة الأغراض ، منها على سبيل المثال أساليب الاستفهام والنفي والعطف والشرط والاستثناء وغيرها، ومن الجمل ما يدل على الوصف والتقرير وبخاصة الجمل الاسمية، ومنها ما يدل على تطور الأحداث أو تتابعها... كالجمل الفعلية ومن هنا فلا بدّ من مراعاة هذه التراكيب، في بناء النصوص المختلفة أو انتقائها من التراث؛ وذلك لأن طبيعة العصر الحاضر العلمية والإعلامية تفرض علينا مسايرته من نواح عدة وبخاصة تلك النواحي التي تتعلق أساسا بما يجب أن نقدمه لناشئتنا في مراحل التدريس؛ كما أنّ تراثنا اللغوي والبلاغي زاخر في هذا المجال بما يمكن الإفادة منه، إن الدّقة الألفاظ المناسبة للمعاني، والربط بين الأفكار، والفقر وغير ذلك من القضايا المتعلقة باللسان أمور أساسية تفطن إليها علماء البلاغة وبخاصة عبد القاهر الجرجاني وهو يتحدث عن (النظم).

إن الدراسات النقدية والأدبية الحديثة قد أخذت تبتعد شيئا فشيئا عن دائرة البلاغة والنحو متأثرة في ذلك بالتيارات النقدية الغربية التي كانت سائدة إلى غاية الحرب العالمية الأولى ومكتفية في الغالب بالمضامين التي يعبّر عنها الإنتاج الأدبي، وبمدى قدرات المبدع على توظيف الأحداث الاجتماعية والتاريخية واستلهام الواقع،أما الجوانب التقنية المتمثلة في استخدام الطاقات التعبيرية اللغوية فقد قل الاهتمام بها، كما أن أرصدة المبدعين في مجال استعمال الألفاظ قد بدت ضحلة إلى درجة كبيرة مما أدى إلى فقر كبير في الحصول على المصطلحات في المجالات المتنوعة.

وفي المقابل لقد كان القدماء (البلاغيون واللغويون) شديدي الحرص على ربط اللغة بالمضمون، وما الأغراض البلاغية التي سجلتها لنا كتب النقد والبلاغة إلا ضرب من هذا الحرص.

إن التطور المرجو في البلاغة والنحو يجب أن يتمثل بالنسبة إلى البلاغة في ضرورة الربط بين المعنى وطرق تصويره انطلاقا ممّا تضمنته البلاغة العربية رصيد هائل لرسم الصوّر التعبيرية، وأن الدّراسات الأسلوبية والسيمائية يجب أن تستمد أصولها من هذا الرصيد البلاغي الهائل...

كما أن هذا التطور بالنسبة إلى النحو ينبغي أن يتمثل في ضرورة استخدام أكبر قدر ممكن من الصيغ التركيبية وربطها وربطها بالمعاني التي تعبر عنها، إن أوجه الاستعمالات النحوية اليوم لا تعد إلا قدرا ضئيلا بالقياس إلى ما سجلته لنا كتب النحو ، ومن أسباب هذا النقص هو أننا لم نستطيع أن نضع بين أيدي الناشئة نصوصا لغوية كافية تجعلهم يتلمّسون طرق إنشاء التراكيب اللغوية وفق العقلية العربية التي أنتجت اللغة...

إن العلاقة بين الدّوال والمدلولات في سائر النصوص الأدبية منها وغير الأدبية إما أن تكون علاقة عرفية أو وضعية ، وأما أن يحمل المتكلم ألفاظه من الدلالات ما ليس ممّا وضعت له أصلا وإنما على أساس إعمال الذهن فيها ، وطبقا لهذين النوعين تنشأ العلاقات التركيبية (النحوية) بين الألفاظ وتنشأ الصور والأخيلة التي هي مجال الدّراسة البلاغية....

ولقد قسّم تمام حسان العلاقات بين الدّول والمدلولات ثلاثة أقسام:11

1-علاقة طبيعية

2-علاقة عرفية(اعتباطية)

3-علاقة ذهنية

فالعلاقة الطبيعية تتمثل في الربط بين الرمز اللغوي وما يثيره في النفس من المعنى من حيث إنّ الناس مختلفون في ما يتبع سماع اللفظ أو قراءته من إثارات نفسية ومردّ ذلك إلى عوامل كثيرة منها : البيئية و الاجتماعية والنفسية وهذا بالرغم من اتفاق أبناء اللغة الواحدة على معنى واحد للفظ من حيث الاصطلاح؛ ولقد تفطن القدماء إلى هذه العلاقة وعبروا عنها بعبارات متنوعة أساسها التذوق عندما قالوا(حسن الجرس، ورقة المعنى، وروعة التأليف، وجمال الدّيباجة.....) فهذه العبارات ومثلها كثير.. تعبّر عن وقع الأثر الأدبي في النفوس، الذي لا يمكن أن يفسر تفسيرا موضوعيا إلا نسبيا ....ونحن اليوم عندما نقف على هذه العبارات في مؤلفاتهم غالبا ما يغيب عنا تصور مدلولاتها ،ولا نتوصل إلى ما توصلوا إليه ونحن نقف على الآثار الأدبية القديمة، وما ذلك إلا لبعدنا عن طبيعة اللغة من حيث صياغة تراكيبها ، ونقص إحساسنا بما كانوا يحسون به أثناء قراءة النص الأدبي أو سماعه.

أما العلاقة العرفية؛ فتتمثل في العلاقة بين الدّال والمدلول من حيث الوضع والإصلاح وهي مشتركة بين جميع أبناء اللغة الواحدة، ولقد تحدث عنها علماء اللغة قديما، ومنهم أبو الفتح عثمان بن جنّي في كتابه الخصائص، ولهذه العلاقة صلة بالعلاقة الطبيعية في النص الأدبي، وذلك إن الكلمات في ارتباطها وائتلافها في السلسلة الكلامية تفيد معانيها الإصطلاحية، ثم أنها من جراء هذا الإنسجام والإئتلاف يضفي عليها السياق من المعاني الثواني ما يجعلها تكتسي صورا من الظلال تنتظم النص كله ، فينتج عن ذلك دلالات ومعان ما كانت لتكون لولا ذلك الانسجام ولائتلاف .

أما العلاقة الذهنية فهي تنشأ عن التصوّر الذهني للمعاني وهي المسؤولة عن عمليات التجريد التي يقوم بها الذّهن الإنساني في علاقته باللغة واستخدمها لتخزين المفاهيم المساعدة على التفكير العلمي؛ وعند ارتباط العلاقة العرفية بالعلاقة الذهنية ينشأ النص العلمي القائم على الاستقراء والاستدلال والاستنتاج.

يمكننا تصور عمل هذه العلاقات على الشكل الآتي:

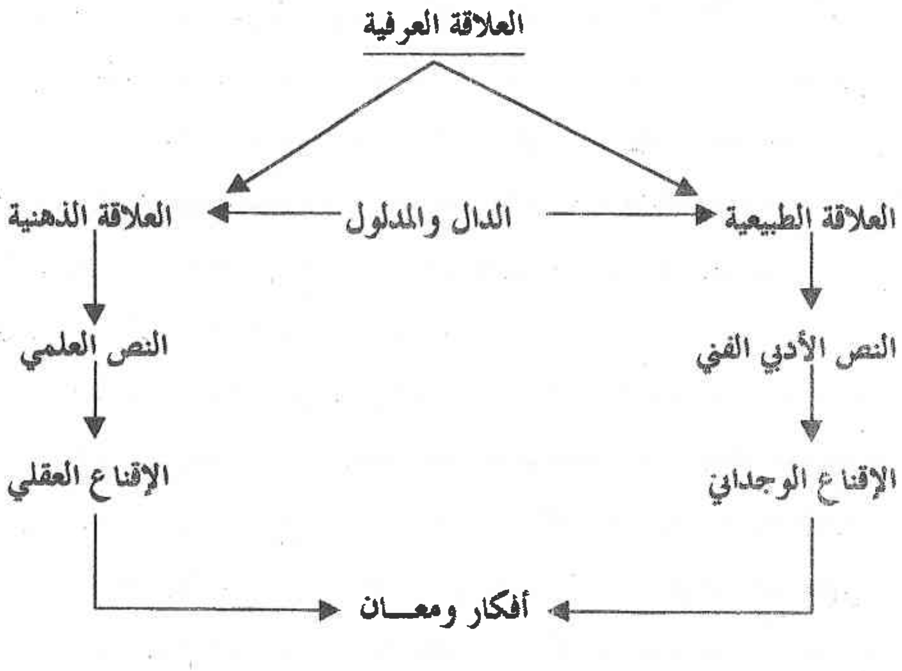

وبناء على ارتباط هذه العلاقات ببعضها كما هو مبين في الجدول يتم إنشاء النصوص سواء كانت علمية أو أدبية ومن ثم تتباين الأساليب : الأسلوب

العلمي أو ما يقاربه الذي يسلك في بناء النصوص التي تعالج القضايا الاجتماعية والظواهر الطبيعية حينئذ نستخدم اللغة بسائر أنظمتها استخداما نفعيا أساسه إيصال الأفكار أو طرحها أو معالجتها، ويتمثل الجانب البلاغي هنا في انتقاء الألفاظ المعبرة واستخدام المصطلحات اللائقة، وفي صحة العبارة ودقة التعبير وتنوع المضامين بتنوع مجالات الفكر وفروع المعرفة ، ومن هذه النصوص الإعلامية والإشهارية والوثيقية والإدارية؛ والنصوص المختصرة والمكثفة ...

فهذه كلها تمّد المتعلمين بالمفاهيم والتصورات وتوسع مجالات المعرفة لديهم، أما الأسلوب الأدبي فمهمته تكوين المفاهيم الحضارية وغرس القيم الجمالية وتعميق الهوية والإنتماء إلى الأمة عن طريق ما يقدمه للمتعلمين من نماذج خلقية ودينية وجمالية، واللغة المستخدمة هنا هي ما يمكن أن نطلق عليه (اللغة الفنية) التي تتجاوز مهمتها عملية التواصل إلى ما هو أعمق، بحيث تصبح في هذه الحالة مقصودة لذاتها باعتبار ارتباطها بالفكر مباشرة ، فهي مخزون حضاري اجتماعي يحافظ خصائص الأمة ومميزاتها، كما يجسد طموحاتها وآمالها؛ ويؤثر في تكوين أبنائها ويوجه تفكيرهم؛ ويبقى على الرّباط الوثيق الذي يربطهم بتاريخ أسلافهم، فالفرد يستجيب نفسيا وتلقائيا لما تمدّه به لغته من أفكار ومثل عليا وقيم، فيتذوقها ويكن لها في نفسه استجابة خاصة لا تخضع لأي مقياس منطقي .

وإذا كان" جاكوب سون" قد اشترط في عملية التواصل توافر العناصر الأتية[12]:

1-إنسان مرسل، 2- إنسان مخاطب، 3-إقامة إتصال بينهما، 4-وجود لغة مشتركة، 5- وجود مرسلة لغوية (رسالة) 6- وجود محتوى لغوي ترمز إليه

المرسلة(رسالة) فإن الجاحظ يقول:" ينبغي للمتكلم أن يعترف أقـــدار المعـــاني ويوازي بينهما بين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة مـــن ذلك كلاما، ولكلّ حالة من ذلك مقاما حتى يقسم أقدار الكلام على أقــــدار المقامات وأقدار تلك الحالات 13:

ومن هنا نلاحظ أن البلاغة عند القدماء تقوم على مراعاة المقام لذلك قالوا (لكل مقام مقال) .

يمكننا أنت نتصور ما قاله الجاحظ في هذا المجال وفق الجدول الآتي:

المتكلم ← الرسالة ← المخاطب

المتكلم	الرسالة	المخاطب
مراعاة المقام والأحوال التي تحيط عملية التواصل	مطابقة مضامينها للمقامات المعبر عنها	مراعاة قدرات المخاطبين على استيعاب المحتوى

يمكننا أن نفيد تصوير الجاحظ للعملية التواصلية في عدة نواحـــي منـــها ، اختيار النصوص أو بنائها وتأليفها سواء كانت نصوصا علمية أو أدبية ومراعاة المستوى التعليمي الذي توجه له من حيث لغتها ومضامينها .

فبالنسبة إلى ما تتطلب صياغة الرسالة (النص) سواء كانت علمية أو أدبية هو مطابقة لغتها لمضمونها؛ بحيث تنسجم اللغة باعتبارها جهازا من التنظيمات المتنوعة (ألفاظ وتراكيب وأدوات) لتعبر عن مضمون أحسن تعبـــير، وتصـــوره أحسن تصوير ...ومن هنا فلا بد من تصويب الانتباه أثناء العملية التعليميـــة إلى الطاقات التعبيرية المستخدمة في تصوير المضامين ودراستها من حيث صلاحيتها

للمقام المعبّر عنه، إذ لا يكفي أن يلحق النص مهما كان نوعه بطائفـــة مـــن الأسئلة ذات طابع عمومي أو أن يطلب من المتعلم استخراج أفكاره العامـــة.. وإنما المطلوب هو كيف صيغت هذه الأفكار وما هي الأدوات اللغوية المعـــبرة عنها؟ وما مدى صلاحيتها لتحمل هذا المضمون أو ذاك؟! ومن هنا ننشـــئ في دهن المتعلم القدرة على استنطاق اللغة، والدّقة على التميـــيز بـــين الألفـــاظ والتراكيب، سواء كان النص أدبيا أو علميا في حين ينفرد النص الأدبي بجملة من الخصائص التقنية المتصلة بالأسلوب منها الوقوف على الصور البيانية وعلـــى أغراض التراكيب ووظائفها من الناحية الفنية الجمالية ....

كما أن معرفة الأفكار التي يحتويها النص الأدبي لا تكفي ما لم يســـتطيع المتعلم أن يلمس الطريقة اللغوية التي نسجت بها تلك الأفكار والطرق التعبيريـــة المنتهجة.

ولقد حاول علماء اللغة المحدثون أن يحصروا وظائف النص اللغوي في مجموعة من الوظائف وهي: الوظيفة الإفصاحية، والتوجيهية والجمالية والوصالية والإعلاميـة، وذلك بحسب طبيعة النص ومحتواه وقصد المتكلم منه، إلا أنـــه غالبـــا مـــا نجـــد النصوص على مختلف أنواعها لا تكاد تتمحور حول وظيفة واحدة، وإنّما قـــد تطغى إحداها على الباقيات؛ ومن هنا فإن اختيار النصوص أو بناءهما يتـــم وفق معطيات تربوية معينة يرتئيها واضعو البرامج حسبما يريدون تثبيته من هذه الوظائف ، وذلك لان الأهداف التربوية المراد الوصول إليها يتم اختيارها علـــى أساس ما ينبغي أن تخدمه من ملكات عقلية وقدرات فكرية؛ كتربية الوجـــدان وتنمية الذوق؛ وتكوين الملكة اللغوية ، وإكساب المتعلـــم مـــهارات التحليـــل

والاستدلال والقدرة على الإستقراء والاستخلاص ...ومن هنا فإن وظائف النصوص اللغوية ينبغي ان تتماشى وهذه المهارا ت.

إن تعاملنا مع البلاغة العربية في ظل المنهاج الحديثة وبخاصة عملية التواصل هذه ، يتطلب منّا التعمق في دراسة البلاغية العربية، وقراءها قراءة واعية انطلاقا من النص وليس الجملة.

إنّ الصور البلاغية التي تستخدم في توضيح المعاني(علم البيان) والأغراض التي تستفاد من التراكيب (علم المعنى) والتلوينات الأسلوبية (علم البديع) ينبغي النظر إليها على أساس كونها طاقات تعبيرية تتضافر فيما بينها في وحدة نصية تتكامل أفكارها وتترابط لتؤدي محتوى معرفيا معينا.

وإذا أردنا السعي الحقيقي إلى إحياء البلاغة وبعثها يجب علينا أن نحقق لها صورها النابضة بالحياة وذلك بتوجيه الاهتمام إلى فهم طرق استعمالها واستخدامها في توضيح المضامين؛ قد لا يكفي أن يعرف المتكلم أن في هذا التركيب أو ذاك صورة بلاغية (تشبيه أو استعارة أو مجاز..) وإنما الهدف إلى معرفة هذه الصورة : كيف تكونت وما هو المعنى المحدد لها ثم ما هي قيمتها الفنية والجمالية في هذا المقام؟ وهل صادفت موقعها بالقياس إلى السياق الذي وردت فيه والمعنى الذي صورته؟ وهل يمكن أن يستبدل بها غيرها في هذا المقام؟ وإذا حدث هذا الاستبدل فأي تغيير يحدث في النص؟! كما أنه لايكفي أن نقول للمتعلم إن هذه الفقرة من النص تمثل وظيفة توجيهية لأن المتكلم يريد إقناع المخاطب ويؤثر فيه، بل لابدّ من دراسة الأساليب التي استعملها لهذا الإقناع، فهل استعمل أساليب التوبيخ أو التعجب أو الإنكار أو الإغراء ولماذا؟! ثم ما هي التقنيات التعبيرية التي اعتمدها؟!

ومن هنا فلا بدّ من الإعتماد في تدريس البلاغة العربية على أسس الآتية:

1-اعتبار البلاغة وسيلة إلى فهم النص الأدبي وتذوقه ومعرفة مرامية وأبعاده أي إخراج البلاغة من ذاتيتها إلى حيز العمل والتطبيق .

2- محاولة التقريب من البلاغة والنحو والدلالة على غرار ما فعل عبد القــاهر في نظريته (النظم)، وذلك بمحاولة فهم الصور البلاغية داخل السياق الذي ترد فيـــه بالنظر إلى العلاقات المتشابكة التي تحكم التراكيب وتؤلف بينها، وتصل بين الألفاظ داخل التركيب الواحد.

3- الوقوف على الوظائف النحوية للكلمات داخل التراكيب للوصول إلى الآثار الفنية والجمالية المترتبة عن هذه الوظائف والتي هي الأساس في صنع الصـــور البلاغية.

4- محاولة تحديد الوظائف التي تهدف إليها الرسالة والوقوف على خصائصـــها وطرق التعبير المستعملة لتجسيدها...

5-تحديد الأهداف المراد تحقيقها انطلاقا من الوظائف السابقة.

6- معرفة الملابسات والظروف المحيطة بالموقف الكلامي أو الرسالة ، وهـــذه الملابسات متعددة ومتنوعة منها ما يتصل بالمخاطبين ومستواهم العقلي والمعرفي ومنها ما يتصل بالمحيط الاجتماعي .....

7- دراسة النصوص الأدبية دراسة عملية والابتعاد أو التقليل من الاعتماد علـى المصطلحات البلاغية التي غدت في معظم الحالات غاية في حد ذاتها وأثقلـت البلاغة وجعلت الناشئين ينفرون منها.

8-اختيار النصوص الفنية الرفيعة السلسة وما أكثرهـــا في تراثنـــا الفكـــري والحضاري ..وفي قمتها النصوص القرآنية.

9-ستنباط القواعد البلاغية باعتبارها طاقات تعبيرية كامنة في اللغة ، لابد من الوقوف عليها، وتمثلها والتدرب عليها، والنسج على منوالها، بدل حفظها وإجراء الامتحان عليها كما هي الحال الآن.

والحقيقة إن المصطلحات البلاغية، هي طرق لأداء المعاني وطاقات التعبيرية متنوعة ، لابد من التدرب عليها مباشرة وتفهم عمقها، وهذا ما كانت تهدف إليه البلاغة عند الأوائل كالجاحظ وعبد القاهر الجرجاني وذلك قبل أن تحصر البلاغة في أمثلة وتراكيب لغوية تكاد تتكرر عند الدارسين وهذا ما جعل الناشئة يجدون صعوبات عند ما يدرسون البلاغة بسبب تفسيرهم بمصطلحات بلاغية محدودة.

بالاستناد إلى ما سبق يمكننا أن نتصور تحليلا للنص الأدبي وفق الطريقة التي اقترحها الدكتور تمام حسان وهي كالآتي[14] :

1-محاولة تحليل النص واستخرج خصائصه اللغوية وذلك من خلال مستوياته الثلاثة : الدلالية والنحوية والبلاغية...

2-معرفة الملابسات والظروف التي تحيط النص كحالة المتكلم والمستمع والمستوى المعرفي والنفسي للمخاطبين أو المستمعين ، والإطار العام للنص من حيث الزمان والمكان..

3-نوع الوظائف التي يؤديها النص ودراسة هذه الوظائف أو بعضها باعتبارها تغلب على غيرها ، من حيث الطرق التعبيرية المستعملة لتصوير المعاني، أو توضيحها ، أو تأكيدها، أو لاتخاذ موقف معين كالإنكار أو التحذير ، أو الترغيب، أو الترهيب، إلى غير ذلك .

4-الأثر أو النتيجة ، والمقصود هنا هو أثر الكلام وما يتركه في النفس من استجابة وانفعال، أو ما يكونه من قيم ومثل.....

وهذا ما يمكن تصوره وفق الجدول الآتي:

النص	الخصائص اللغوية	الملابسات	نوع الوظيفة	الأثر أو النتيجة
يذكر النص	يحلل النص على المستويات اللغوية المختلفة: الدلالية والنحوية والبلاغية	-المتكلم -السامع -الظروف	-إغراء -التزام -تحذير -توبيخ -تصوير -تخييل	-أثر الكلام من استجابة -أو عدوان -فرح -تكوين قيم - تذوق

وخلاصة القول:

إن الدراسات اللسانية الحديثة بالرغم من تعدد مناهجها واتجاهاتها إلا أنها جميعا تهدف إلى دراسة النص اللغوي للوقوف على محتوياته ومعرفة أبعاده ومراميه.

ولئن كان من الصعب دراسة النصوص من جميع مستوياتها، فإن من السهل اختيار مجموعة من المعالم الأسلوبية واتخاذها هدفا للدراسة....